سيريالیزم

بقلم : فتحی زکی

هل يمكن ان تظل عربة تسير فى طريق مزدحم بلا سائق ، ومع ذلك لا تصطدم بشيء فى طريقها .. ؟

قد نرى هذا فى احد افلام السينما بخدعة من الخدع .. اما ان يحدث ذلك فى الواقع فذلك ما لم اكن اتصوره ابدا .. ولكنه حدث معى .

كان التعب قد صرع عقلى وازاحه جانبا من مقعد القيادة فى راسي ومع ذلك لم اصطدم بشيء فى طريقى .. كنت تماما اشبه بسيارة فقدت سائقها فجاة .. ولكنى كنت ادرك بالغريزة اين اضع قدمى .. والى اين اتجه ..

وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا وفوهة الليل قد ابتلعت فى جوفها كل ما فى المكان كانها دوامة من الرمال المظلمة التهمت ببطء كل ماحفل به وجه النهار فى الميدان من حياة...

كنت غائبا عن الوعى تماما .. فان عقلى لم يستطع ان يصمد لمعركة الاسئلة الكثيرة التى اخذت تنهمر عليه منذ ان خرجت من الحفلة التى اقامها زميلى القديم الفنان « عصام » بمناسبة افتتاح معرضه الجديد .. اسئلة كالسياط كانت ترجم عقلى وانا اشق طريقى بلا ادراك نحو موقف الاوتوبيس ..

وفجاة وجدت نفسي فى جوف العربة .. جالسا فى مقعد بجوار النافذة اطل منها بنظرات نائمة .. لا شيء على وجه التحديد ..

كنت غارقا فى الملل .. وكانت نظراتى الضالة تزيدنى غرقا فيه .. اما بدنى فقد استكان فى خدر لذيذ للمقعد اللين الذى جلست عليه .. وكنت احس بموجات التعب وهى تغادر بدنى منذ ان جلست كما تنبعث موجات الاثير .. موجات لم يكن احد يراها .. ولا انا نفسي .. ولكنى كنت احس بها وهى تنسلخ من جسدى المكدود ، فاحس كانى اتخفف من حمل ثقيل كاد يقصم ظهرى .. كيف استطعت ان احمل هذا الجبل الثقيل دون ان ادرى .. ؟ واين كنت احمله ؟ هل يوجد فى اعماق كل منا خزان كبير يتسع للمتاعب والاحزان فى صمت ولكنه ينهار فجاة فيجرف كل ما امامه من السدود الاجتماعية وتتسرب موجاته من نظرات العيون الذابلة .. وتثاؤب الافواه النائمة .. وترهل الحركات المتعبة ؟ ومنذ متى احمل على كاهلى هذا الجبل ؟

اين انت يا امى ؟ اتراها قد نامت الآن ؟ منذ اسبوع تقريبا لم ارها مع اننى اعيش معها فى بيت واحد .. دائما اعود بالليل بعد ان تكون قد نامت .. اما فى الصباح فاننى اصحو عكر المزاج ليس بنفسي رغبة فى تبادل تحية الصباح مع احد .. وما حدث بالامس حدث اليوم .. وسيحدث غدا ..

اف .. لكم انا مرهق .. ها هو الليل قد جاء .. المارد الاسود الذى ظل طوال السنين الماضية يرهبنى منذ ان كنت طفلا .. فى طفولتى كنت انام بأحضان امى .. كنت احتمى باحضانها من ذلك المارد .. اما الآن فان ذلك لم يعد يناسبنى .. ذات يوم منذ أعوام طويلة القت بى فى الخضم المضطرب وقالت لى : لقد كبرت يابنى واصبحت رجلا .. عليك ان تنام بمفردك .. وان تصحو بمفردك .. وان تسير فى شارع الدنيا بمفردك ..

ومنذ ذلك اليوم وانا بمفردى وسط الزحام ..

ان كثيرا من تعاليم امى عزلتنى عن الناس .. جعلتنى اعيش فى ناقوس مفرغ من المبادىء والافكار .. اراهم من خلال جدرانه الشفافة ولكنى لااسمع اصواتهم .. اراهم يضحكون وانا حزين .. يسخرون وانا غاضب .. يرقصون وانا متعب .. ان صلة الفهم مقطوعة بينى وبينهم ..

منذ كنت طفلا وانا احب صوت الناى .. افضله عن صوت الاكورديون المرح الذى كان زميلى عصام يجيد العزف عليه .. لا زلت اذكر منظرا كان يحدث لى كل يوم وانا فى المدرسة الابتدائية . كان الاطفال فى الفسحة يلعبون ويقفزون فى الفناء .. اما انا فكنت اقف كالحكيم المفكر بجوار السور وانا اتعجب .. كيف يمكن ان تصدر كل هذه الضوضاء من هذه الحناجر الصغيرة والابدان الدقيقة ؟ وفيم يمرحون ؟ وكنت اظل افكر فى جواب للسؤال الخالد كل يوم حتى يدق جرس الحصة فاترك وقفتى الحزينة بجوار السور وانا اعد نفسي ان استأنف التفكير فيه فى اليوم التالى وحتى الآن لم اجد جوابا له ..

اف .. انا الليلة متعب .. متعب جدا .. وساعة الجامعة العربية التى اراها من مكانى بجوار نافذة الاوتوبيس لا تريد ان تتحرك .. ها هو ذا عقرب الدقائق الكبير بعد طول اناه يتحرك حركة عرجاء ليلفظ من عمرى دقيقة .. تماما كحركة مشوهى الحرب بعد عودتهم من معركة فاشلة . هذه الدقيقة العرجاء ما اثقلها .. كم فى حياتى قبلها من امثالها .. اليست هذه الدقائق المشوهة هى ما تصنع عمرى ؟

لماذا لا يريد هذا السائق البليد ان يسير بالعربة .. انى اوشك على النوم .. سأحاذر أن انام خشية ان تفوتنى المحطة التى اهبط فيها عادة .. كما حدث منذ بضعة ايام .. فليس معى الليلة نقود تكفى العودة الى المنزل بتاكسي .. متى تنتهى هذه الازمات المالية التى تلح على .. ليت امى لم تقل لى ذاك اليوم .. تلك الكلمة .. لو لم تقلها لى لما اصبحت هكذا ..

لن انسي ذاك اليوم .. كان يوم الخميس .. وكم كنت احب الخميس من كل اسبوع .. كان دائما يحمل لى معه وعدا اكيدا بقرب يوم الجمعة اليوم الذى

كنت استطيع فيه النوم حتى التاسعة او العاشرة صباحا ..

ولم يكن هذا وحده هو كل ما يحببنى فى يوم الخميس .. فقد كان يتحلى دون ايام الاسبوع بمتعة أخرى وهى التى كنت افوز بها فى حصتى الرسم .. وهما احب حصص الاسبوع الى نفسي .. اننى لا اعرف حتى الآن سر ذلك الشعور بالسعادة التى كانت تستولى على فى حضور الاستاذ لطفى مدرس الرسم . اكانت ترجع الى ذلك الاعجاب الشخصي الذى بينى وبينه؟ وهل كان ذلك الاعجاب يرجع الىتفوقى الشديدفى تلك المادة.. ام ان تفوقى كان يرجع الى اعجابى باستاذى ؟ ام ان ذلك الشعور بالسعادة كان فى الحقيقة يعود الى سبب آخر وهو ان حصتى الرسم كانتا آخر حصتين يختم بهما برنامج الاسبوع لننطلق بعد ذلك فرحين عائدين الى بيوتنا .. نحمل فى قلوبنا الخالية احساسا دفينا غامضا بالتخفف من عبء ثقيل رفعناه على كواهلنا الصغيرة اسبوعا كاملا .. دون ان يساورنا شك فى اننا سنعاود رفعه مرة أخرى ..بل ومرات ..

لست ادرى ..

كان ذلك الشعور ينتابنى كل خميس .. ولكن ذلك الخميس بالذات ظل يطارد ذاكرتى طوال السنين الماضية .. وما اغرب ما يتحكم يوم واحد فى مصير عمر باكمله .. وما اعجب ان انسي كثيرا من تفصيلات صباى .. ولا انسي تلمة واحدة مما حدث ذلك اليوم .. بل ما اغرب ان يصبح عمرى كله بعد ذلك امتدادا له.. بل امتدادا لواقعة واحدة حدثت ذات يوم منذ ثلاثين عاما .. واستمرارا لكلمة غاضبة سمعتها عندئذ من فم أمى ..

فى حصة الرسم ذلك اليوم .. دخل الينا الاستاذ لطفى بتلك الابتسامة التى لم ينفضها ابدا من فوق شفتيه .. كان دائما صبوحا مبتسما..حانا ..لانشعر معه بما كنا نشعر به مع باقى المدرسين من فارق فى العمر والعقل والسلوك.. ولم يكن صوته يتضخم فى سمعى ابدا حتى يستحيل الى صوت مارد عملاق.. كباقى المدرسين .. ولكنه كان ذلك اليوم اكثر من عادته اشراقا وحبا لنا .. قرأت على وجهه عند ذاك ما تعودت ان اقراه على وجه أمى كلما رأتنى .. حتى لو كان بها الف داء ..

وبعد ان تجاوبنا مع ابتسامته طلب منا الاستاذ لطفى ان نرسم موضوعا نتخيل فيه بلدتنا بعد عشرين عاما .. عندما نكبر ونصبح رجالا ..

وكانت بلدتنا بلدة فرعونية صغيرة ملقاة فى اطراف صعيد مصر .. يمر عليها الزمن ولا يتوقف ابدا وكأنه لايعيرها ادنى اهتمام .. تماما كما يمر عليها ماء النيل فى مجراه الطويل.. ظل يمر عليها دهورا طويلة دون ان يفعل شيئا فى تماثيلها الفرعونية النائمة .. كنا لا نحس ابدا بأن للزمن علينا تأثيرا كما له على بقية البلدان ..

ولكن حادثا تاريخيا كان قد حدث لبلدتنا ذلك الاسبوع .. ولعله هو الذى جعل الاستاذ لطفى يفكر فى ان يعطيناهذا الموضوع لنجوبفيه بأحلامنا التى لاتعرف لها حدودا .. فقد دخلت الكهرباء لاول مرة فى بلدتنا .. واعتبر

الاستاذ لطفى هذا الحدث بداية تاريخ حقيقى يجب ان يؤرخ له فى وجداننا بموضوع كهذا ..

ورغم اننا لم نكن قد تأثرنا بعد تأثيرا حيويا بهذا الحدث الكبير .. اذ لم تكن الكهرباء قد لمست بسحرها الا الشارع الرئيسي للبلدة .. ومبنى نقطة البوليس ولم تدخل الى بيوتنا بعد .. الا اننا وقفنا جميعا ذات ليلة من ذلك الاسبوع تحت المصباح الكهربائى فى الشارع الكبير نطيل فوق الصفيح كما كنا نفعل ايام المطر .. لنرقب المصباح وهو يطلق فى وجه الظلام الذى ران دهورا صرخة تفتته الى ضياء .. وتحيل الليل الى فجر تأمره فيشرق وقتما تشاء ..

ولست ادرى لماذا جعلنى كلام الاستاذ لطفى عن هذا الحادث الكبير اسرح وافكر فى اشياء كثيرة .. لقد قال لنا فى الفصل ان الكهرباء ستغير من كل شيء فى بلدنا .. ستحيل الاسود الى ابيض .. والركود الى حركة ونماء .. وستدفع بكل ما فى حياتنا الى الامام .. خطوات وخطوات ..

ولا اعرف لماذا جمح عقلى عندئذ .. وكأن الكهرباء قد مسته هو ايضا .. فتصورت ان الانسان نفسه سيتغير .. فانه من غير المعقول ان يتغير كل ماحولنا كما يقول الاستاذ لطفى وتظل اجسامنا على نفس الشكل والهيئة التى خلقنا بها .. وخلق بها اجدادنا من قبلنا .. ولم يكونوا يعرفون الكهرباء ..

اننى اضحك الان عندما اتذكر تلك الفكرة الجنونية التى استولت على .. لقد تصورت ان انقلابا خطيرا سيحدث فى جسم الانسان .. وهكذا رسمت الموضوع المطلوب وقد اضفت على الانسان ذراعين آخرين .. وعين ثالثة فى الجبهة .. ورابعة فى مؤخرة الراس .. كى يسمو الى احتياجات عصر الكهرباء .. وكل هذه الاعضاء الاضافية فى حركة دائبة تشبه موتور ميكانيكى لمسه ساحر .. اسمه الكهرباء ..

ولكنى اكتشفت اننى لم افعل ذلك وحدى .. بل ان زميلى عصام قد شط به عقله شططا ممائلا فجعل من الانسان مجرد راس كبير .. كثير العيون .. واختزل باقى اعضاء الجسم الى .. تقريبا لاشيء ..

وكان الاستاذ لطفى يحتفى برسومى انا وعصام اكثر من احتفائه ببقية رسوم التلاميذ الاخرين .. لذلك فان خيبة امله التى ظهرت على ملامح وجهه وهو ينظر الى رسومنا ذلك اليوم لا زالت مرتسمة فى مخيلتى حتى الان ..

لقد غضب منى ومن عصام .. بل لقد اوشك ان يبصق على فعلتنا .. ولاول مرة تخر الابتسامة من على شفتيه صريعة .. ماذا فعلنا حتى نسبب له هذا الضيق .. بل كل هذا الحزن .. كنت اظنه سيفرح بذكائى ومنطقى .. الم يطلب منا ان نطلق لخيالاتنا العنان؟ وماذا فعلنا غير ذلك ؟

والحق .. اننى حاولت وانا اقرا ما على وجهه من اشمئزاز .. ان اعتذر عن ذنب ارتكبته دون وعى منى فانى كنت احب الاستاذ لطفى .. وما كنت اطيق منه هذا النفور منى .. ومن فعلته .. ولكنه نظر الى نظرة طويلة يفوح منه اليأس وكأنه يقول انه لم يرع ملكتى الفنية طوال السنوات الاربع

الماضـــية حتى اصل الى هذا الدرك الذى انحدرت اليه ذلك اليوم .. أو كأنه يريد ان يؤكد لى انه ســـيكون اول التعســـاء لو صح ان الكهرباء والعلم والتطور ستحول الانسان الى هذا المسخ الذى صورته فى لوحتى.. لو ان هذا هو ما سينحط اليه الانسان فى العشرين سنة القادمة .. فانه على استعداد ان يقود مظاهرة قـــوامها شعب البلدة كلها لتحطيم المحطـــة الكهربائية الجديدة .. رغم ان فرحـــة الناس بها لم تزل يانعة ..

وحزنت .. لا لانى خيبت أمل الاستاذ فى ابرع تلاميذه .. بل لانى تسببت له فى ذلك الحزن ..

وفى البيت .. كان حزن الاســـتاذ لطفى قد وجد له فى قلبى الصـــغير مسكنا .. وراتنى امى لاول مرة مقطب الجبين وقد التصقت بوجهى تكشـــيرة مغضنة .. ولم احس بدافع للاجـــابة على وساوسها .. كانت كلما سألتنى عما بى .. امعن فى الصـــمت وكأن حزن الاســـتاذ لطفى قد سلب منى لســـانى .. وارتابت امى .. هل انا مريض ؟ .. هل عاد الى ذلك الالم الذى سكن امعائى واستقر منذ ان اصـــبت بالتيفود ؟ أم ان احد المدرســـين قـــد جرحنى بكلمة ؟ واحتضنتنى..قبلتنى .. وضعتنى فوق حجرها لاخر مرة .. نعم كانت تلك آخر مرة تفعل فيها ذلك وهى تمطرنى بحنانها ..

واخيرا.. ودون ان افتح فمى اخرجت لها كراسة الرسم .. كنت اتمنى فى اعماقى تلك اللحظة الا ترى فى رسمى ما رآه الاستاذ لطفى .. كنت اريدها ان تنقذنى من احساس بانى الســـبب حقا فى حزن استاذى الحبيب .. بل ان تؤكد لى اننى لســـت ســـببا فى ضيقه اليوم ..

ولكن .. لن انسى ما ارتســـم على وجهها من ذعر وهى ترمق الرسم وقد امتلأت عيناها سخطا .. اننى اذكر كيف ابعدتنى عن حضنها تلك اللحظة وقـــد انطلقت من عينيها شرارة الغضب .. بل اننى لازلت اذكر كيف وقفت قبالتى وقد استحالت كمارد عملاق وهى تقول بصوت غير صوتها الرقيق.. ماذا فعلت يا ولد ؟ .. هل تظن نفســـك طفـــلا حتى الآن ؟ لقد كبرت يا بنى .. ويجب ان تفكر فى كل ما تفعل .. من الان .. ما هذا الكلام الفارغ .. فكر .. فكر .. فكر .. يجب ان تفكر ..

ومنذ ذلك اليوم وانا افكـــر .. كى اعود الى احضانها .. ولكى تعود الى الاستاذ لطفى ابتسامته ..

اما عصام .. فقد عرفت ان امه لم تعنفه ذلك اليوم كأمى .. لم تقـــل له فكر .. ومرت سنوات .. واصبح هو الان فنانا يعرفه الجميع.. وتملأ اخباره الصحف .. ولا يعود فى الهزيع الاخير من الليل البارد فى الاوتوبيس ..

اما انا .. فماذا صنعت بى نصيحة امى ؟ كيف يمكن ان تتحكم كلمة واحدة سمعتها من فمها الغاضب ذات يوم فى عمر بأكمله ؟ ما اعجب النفس .. منذ ذلك اليوم وانا افكر .. واضع من الفكر وحده ناقوسا كبيرا يعـــزلنى فى فراغه عن الناس جميعا .. كيف مرت كل هذه السنوات دون ان اشعر بها.. هل كنت خلالها نائما فى الناقوس .. وهـــل حقا لا تكون الحقيقة الا اذا شعرنا بها .. ان هاتفا فى نفسى يقول

لى الآن .. ان الثلاثين عاما التى مرت منذ ذلك الخميس حقيقة .. حتى لو لم اشعر بها .. فاننى اليوم فى الاربعين ..

اليوم قابلت عصام .. ذهبت اليه فى معرضه الجديد .. رايت عنده مجموعة من خيرة النقاد .. وفكرت طويلا وانا امعن النظر فى لوحاته .. فلم افهم منها شيئا .. ولكنى احجمت عن ابداء راى عندما طلب الى ذلك فقد كان من حوله يمطرونه بأحسن المديح .. ويغدقون عليه بعبارات متحذلقة ملتوية لم افهمها كذلك .. فان بينها وبين لوحاته شبها كبيرا ، بل رايت فتاة حلوة هى مشروع ناجح لسيدة مجتمع تقبله دون خجل .. كاحسن طريقة تمتلكها ..

والحق .. اننى خرجت من معرض عصام مثقل النفس بالكثير .. ظللت أسير فى الشوارع بلا هدف وكأننى كنت اريد من الظلام ان يطمس معالم الثورة التى بدات تنشب فى اعماقى .. والتى ازاحت عقلى جانبا من مكان القيادة فى راسي ..

تذكرت ذلك الخميس .. لا زال عصام يرسم ما رسمه ذلك اليوم .. الانسان بثلاثة عيون .. وخمسة اذرع .. ومجرد راس يملأه عقل كبير ..

ولكن هذا لم يحدث .. لقد أملت علينا هذا الخاطر احلامنا الجامحة ونحن صغار .. ولكن الواقع الان بعد ان مرت السنوات الطويلة يؤكد انها لم تكن الا اضغاث احلام لم تتحقق .. فلم تفعل الكهرباء ولا الذرة ما كنا نتوقعه .. فلماذا يصر عصام على هذا ؟ لماذا يصرون جميعا على ان هذا هو فن الانسان العصرى .. وان فن امثالى ليس الا ترهات رجعية تتشبث بماض علينا ان ننبذه ..

وطوال سيرى فى الطرقات منذ ان خرجت من المعرض .. وانا اسائل نفسي .. لماذا .. وصورة امى الغاضبة تختلط فى ذهنى بأحزان الاستاذ لطفى ذلك الخميس .. وبأحزان الفشل الذى حكم على به طوال سنوات الناقوس ..

غدا سيكتب النقاد ليشيدوا بفن عصام .. سيرفعونه فوق ما رفعته الفتاة الحلوة فى نظرى .. سيرشحونه للجائزة .. سينادون بارسال لوحاته لتعرض فى اوربا .. وساظل انا .. كما انا .. مجرد صوت معزول عن الناس بفراغ ..

وفجاة وجدت نفسي تتمرد على سجنها .. الى متى اظل هكذا ؟ .. لماذا لا اكون مثله ؟ هل انا سعيد بالنوم داخل الناقوس .. لقد رسمت ذات يوم منذ اعوام طويلة كما رسم عصام .. فلماذا لا استرد العهد واعود لابدأ حيث انتهيت منذ ثلاثين عاما .. هل انا راض عما انا فيه ؟ .. هل امى راضية ؟ وما الذى حققته بهذا التزمت الصارم الذى فرضته على نفسي ؟ ماذا فعلت بلوحاتى التى انهكت نفسي فى خلقها وهى ملقاه فى حجرة مظلمة بالبيت كالموت بلا اكفان ..

بالامس ذهبت لابيع احدى لوحاتى .. ولكن صاحب المعرض نظر الى والى لوحتى ثم انصرف عنى .. كان من الواضح انه يريد ان يتخلص منى .. ونظرت حولى فى معرضه فلم اجد صدى للوحتى بين المعروضات جميعا ..

واحسست وانا اقف فى المكان كاننى امت الى عالم آخر .. تفصله عن هذا العالم المحيط بى أميال وأميال .. فقد كانت كل اللوحات المعروضة من مذاهب فنية لا أومن بها ..

وخرجت من المعرض لاذهب الى معرض آخر .. وفى كل مرة كنت اجابه بنفس الحقيقة المؤلمة .. وهى اننى اصبحت كالنغم الناشز .. واخيرا قال لى صاحب احد المعارض : اذا اردت ان ابتاع منك لوحة .. عليك ان ترسم كالآخرين .

لماذا لا اخرج من الناقوس ليلتف حولى النقاد .. ولتنقدنى فتاة حلوة بقبلة كتلك التى رايتها فى معرض عصام ولا اضطر للرجوع الى المنزل فى الليل البارد فى عربة أوتوبيس كسولة تتسكع بالوقوف مرة كل مائة متر .. نعم يجب .. وعندما افتتح معرضا .. ويكتب النقاد عنى اننى عبقرى من ابناء هذا الجيل .. ستعرف امى .. وسيدرك الاستاذ لطفى انهما قد ظلمانى .. واننى كنت ضحيتهما ..

وافقت من اغفاءة النوم التى اغرقتنى — رغما عن تحذيرى لنفسى — والعربة تضج بالضحكات .. كنا قد قاربنا من باب الحديد .. ونفضت عن شعورى رذاذ النوم كما تنفض البطة الخارجة من الماء ريشها لتجففه كنت اريد ان اعرف سر ضحكهم الصاخب .. ولكنى لم افهم شيئا .. كنت لازلت مسجونا فى الناقوس .. حيث تعودت ان اراهم يضحكون وانا حزين .. ويرقصون وانا متعب .. ويسخرون وانا غاضب .. وكدت انسى الامر كله لولا ان الضحكات ضيقت على الخناق وحاصرتنى من كل اتجاه وبصعوبة استطاعت اذناى ان تلتقط من بين ضجيج الضحكات صوت طفل فى العاشرة .. تماما كما تلتقط إبرة رفيعة من بين جوال من القش .. كان الطفل يقف فى وسط العربة يلقى عليهم اغنية مرحة وهو يرقص مفتعلا طربا .. او كأنه اول المتأثرين بأغنيته بين السامعين .. كنت ابحث جاهدا بعد ان سمعت كلمات الاغنية عن سر لتلك الضحكات المجنونة .. ولكنى لم اجد .. وتذكرت لوحات عصام ونظرت الى الطفل متمعنا علنى اجد فى مظهره ما يبرر هذه الضحكات بعد ان عجزت كلمات اغنيته ان تفسرها لى .. كان مجرد طفل يحاول ان يقلد مطربا كبيرا مشهورا بمواويله وهو يرتدى قميصا احمر تزينه خطوط متقاطعة .. وسروالا قصيرا .. ويرسم على شفتيه متعمدا ابتسامة هى اشبه ما تكون بحركة راقصة المولد التى تكشف عن سيقانها متعمدة لتنعش من نظرات جمهورها وتنسيهم رقصها القبيح .. ولم اجد فى شكله ايضا تعليلا .. وشعرت بالنفور من الطفل .. كأن فى وجهه شيء يعذبنى .. كان يحاول التشبه بالرجال فى حركاته وردوده على مداعبات الناس الساخرة. كان يحاول ان يتنكر لطفولته .. ايها الطفل الغبى لماذا تتعجل الزمن .. غدا تصبح رجلا وتندم على ما تنفر منه الآن ..

وكلما قال مقطعا من اغنيته .. انفجرت الالغام فى الصدور .. الغام كنت احس اننى هدف لها كانوا يريدون قتلى .. فقد كانت الافواه العديدة من حولى .. آلاف الافواه .. تفتح فى ثانية واحدة لتصوب نحو وجهى العابس ..، الذى فسروا عبوسه غباء منى .. آلاف

الناس كانوا يمضون فى الضحكات وكأنهم لا يستمتعون بالنكات بقدر ما يستمتعون بمضايقتى .. حتى موتور العربة وزجاج نوافذها ومقاعدها كانت تشارك فى الضجيج وكأنها تضحك هى الاخرى منى ..

واحسست بدوار شديد .. كأن الضحكات استحالت من حولى الى بحر هائج الامواج .. أمواج تهدأ لحظة لتثور من جديد كلما القى الطفل المربد من فمه كلمة .. وقذفتنى الامواج بعيدا عن حاضر العربة .. الى ميدان واسع رهيب .. مظلم.. هواؤه ثلج .. وأرضه نار .. يزدحم بآلاف الافواه التى تقدح ضحكاتها شررا فى الظلام لمهرج يقف بينهم وهو يمسك بفمه آلة سحرية تفقدهم عقولهم ..

واختنقت اذناى .. كنت فى اعماقى غريقا اوشك على الموت .. ولكنى كنت احاول ان اطفو فوق الموت ..

واخيرا التقطت القشة .. وكان صوت طفل آخر فى مثل عمر الطفل المغنى .. ولكنه ليس مثله فى اى شيء آخر .. كان يجلس وراء مقعدى فى الدرجة الثانية وقد ارتدى جبة وعمامة وقفطانا واخذ يقرأ بصوته الرفيع آيات من القرآن الكريم .. وعجبت من نفسي .. كيف لم اسمع صوته الا الآن فقط مع انه يقرأ القرآن منذ ان بدأ الطفل الآخر يقذف بسخافاته .. واوشك صوته أن يضيع مرة اخرى فقد انتهى الطفل من اغنيته وبدأ فى القاء بعض النكات .. والمستمعون يتبارون معه فى الضحكات والقفشات ..

ولكن اذنى تمسكتا بصوته كما يتمسك الغريق بالقشة .. واستدرت براسي لاتأمله .. كان طفلا هضيم الوجه يرتدى عمامة كالحة اللون وجبة صغيرة لم اشك عندما رايتها فى انها لم تكن فى الاصل جبة .. وكانت ملامح وجهه المسكينة تحاول جاهدة مع يده اليمنى التى الصقها بخده كعادة الفقهاء ان تتسق مع ذبذبات صوته المختنق وهو ينغم الآيات بخشوع ..

واحسست بالاشفاق على الشيخ الصغير .. فقد كان يحاول كلما ارتفع ضجيج الضحكات ان يرفع صوته ليثبت أن الله نفسه يتكلم اليهم بصوته فلا يفلح الا فى ان يجعل عروق رقبته الدقيقة تنفر حتى توشك أن تنفجر ..

كان الجالسون حوله فى الدرجة الثانية يستمعون الى القرآن بلا انتباه ويضحكون على نكات الطفل الآخر بكل حماستهم المتبقية حتى الساعة الواحدة والنصف صباحا .. وكان الشيخ الصغير كلما تهشم صوته الرقيق فى ضجيج الضحكات الشرسة يحس بالنار تأكل قلبه .. نار هى مزيد من الحقد على الطفل الاخر والحزن على حاله والغيرة على القرآن الكريم .. فتدفعه النار الى القسوة على من حوله بآيات يذكرهم فيها بالعذاب الاليم وعقاب الاخرة والنار وبئس القرار .. وتنفر عروق رقبته اكثر فأكثر .. وكلما امعن فى القسوة عليهم ضجت ضحكاتهم على نكات الطفل الآخر وكأنهم يحتمون فى الضحكات الجوفاء مما تثيره كلمات الشيخ فى قلوبهم من خوف ..

والحق اننى ازددت غرقا .. ظللت لبضع دقائق استمع لاغرب معركة بين طفلين كل منهما يحاول أن يكسب الناس

الى جانبه بالطريقة التى يتقنهـا .. وظلت الآيات والنكات تتصـارع حول الآذان لتشق طريقها الى القلوب .

ومن الطبيعى اننى اشفقت لحـال الطفل الصغير.. كان هناك شيء غامض يربطنى بمأساته التى لم يفلح وقـار الجبة والعمامة فى اخفائها .. فقـد كان من الواضـح .. بعد ان هللت العربة بالتصفيق للطفل الآخر .. انه قد هزم .. وان آياته لم تصـمد فى المعركة .. فقد خذلتها الآذان وفضلت عليها نكات سخيفة .. وحالت اللحظة الحاسمة ..

اخرج المهرج الصغير منديلا احمر من جيبه غطى به كفه الايمن واخذ يدور على الجالسين طلبا لثمن المتعة المجنونة التى اغرقهم بها .. ولم يكف مع هـذا عن نشر تعليقاته المرحة كلما راى واحدا من الجالسين يشيح بوجهه عبر النافذة ليهرب من دفع ثمن الضحكات ..

ولا يملك الرجل الا ان يبتسم وقـد ضجت العربة بالضحك من محاولة هربه التى كشفها المهرج الصغير بذكاء اكتسبه بالتجربة مع امثاله ..

يضـحكون .. ثم يبخلون عليه بالثمن .. وما قيمة القرش بالنسبة لما تمتع به كل منهم من مرح وللابتسـامة التى التصقت بوجهه والتى بعد دقائق سيقابل بها زوجته بدلا من التكشـيرة الجامدة التى كانت تشوه ملامحه قبل دقائق والتى تسبب احيانا بعض حالات الطلاق .. ويضحك الناس مرة اخرى.. انهم يتمسكون بذيول المرح بعد ان اوشك على الاختفاء ..

ولا يجرؤ واحد على التهـرب من الدفع للطفل الماكر .. فانه يعرف كل من اضحكهم واحدا واحدا..ولم يسمح لاى منهم بالضحك عليه ..

اما أنا .. فلم يحاول ان يقف عندى عندما حاذت خطواته مجلسي ولكنه لم يمنع رغبة جامحة اسـتبدت به ليقلد تكشيرة وجهى .. والحـق .. انه استطاع عندئذ فقـط ان يدفعنى الى الابتسام .. فقد كان ماهرا فى التقليد لدرجة اسـتحال معهـا الاصل الى صورة ..

ولكنى سريعا ما عدت الى ضـيقى وكأننى اكفـر عن ذنب الابتسـام فقد تذكرت الشيخ الصغير .. كان يمر بين الناس بجسده الضئيل واطـراف جبته تعلق جوانب المقاعد..وكأنها تشاركه فى الاستجداء..اما يده الضريرة فكانت ترتد دائما اليه خالية .. يثقلهـا نوع مرير من الخجل كنت احسه من رعشتها عندما اقتـرب من مجلسي .. ولم يفلح منظره الضئيل ولا سعاله المذبوح فى ان يبعث الشفقة فى قلوب المبتسمين .. كان يقف امام كل مقعد ويمد يده المـرتعدة حتى يقربهـا لعيون الجالسين الذين تصنعوا جميعا النعاس فجـأة .. ثم يشفع كل ذلك بكلمات رقيقة هامسة فيها دعاء للناس ودعاء لله من اجلهـم .. ويفشـل كل ذلك فى تحريك عواطفهم نحوه .. تماما كما فشلت آياته فى النفاذ الى آذانهم .. وكلمـا تعدى صفا من الجالسين ازدادت ملامحه شقاء..وكأنه يقترب من مصير مزعج بات محتوما ..

واخيرا اقترب منى .. كانت انفاس الطفل تلهث وكأنه قد ركض صاعدا جبلا عاليا والخـوف من المصـير المحتوم يضاعف احساسه بالتعب .. وعندما

رأى نظرتى الساهمة المشفقة وجدته يتمسك بى كآخر محاولة للخلاص من الفشل .. فان هذه آخر عربة .. ولن يستطيع ان يكرر المحاولة فى عربة اخرى .. اما انا فلم استمع الى كلماته الوانية وهو يحاول معى ان ينجح فيما فشل فيه مع غيرى .. وما كانت حاجتى الى كلماته .. كنت اجيل النظر بين ملامحه وقد لطخها احساس طاغ بالذل .. وبين ملامح الطفل الآخر وكان قد اقترب من الباب بعد ان انتهى من جولته الظافرة فى العربة .. واستغرقتنى المقارنة المؤلمة ..

وكانت بقايا موجات الحزن التى احتفظ بها فى قلبى رغم انهيار سد المقاومة فى اعماقى قد بدات تفيض .. لقد جسم الطفل الماثل امامى كل ما احمله فوق كتفى من جبال التعاسة .. ولم يساورنى شك وانا انظر اليه ساهما مشفقا اننى انظر الى صورة لاحزانى مجسمة .. فى شكل طفل شقى دفعه اعصار بارد الى احراش غابة تحتكرها الذئاب والاسود فى ليلة دامسة الظلمة ليبحث عن ثدى أمه ..

ولولا بقية من الاتزان والخوف من اعتبارات اجتماعية غبية .. لنهضت من مقعدى لانحنى امام الطفل الباكى مقدسا عذابه واشترك معه فى تحمله .. او على على الاقل لأقبل وجناته المبللة بأزكى دموع رايتها .. لعلنى بذلك ابصق على ضحكات القطيع الشرس .. ولكنى لم استطع .. كنت اخاف ان اثير بذلك موجة اخرى من الضحكات ذات الانياب .

كل ما استطعته اننى وضعت يدى فى جيبى لاخرج له بعض النقود وانا اتمنى ان احنو بذلك على الم احسست ان الطفل قد ورثه يوم ولد .

عندئذ هدات انفاس الشيخ الصغير ولمحت فى نظرته لاول مرة بريقا من طفولة مسجونة لم تجد طوال يوم باكمله فرصة للانطلاق .. وقبل ان اخرج يدى بالنقود كان الطفل الآخر قد انتهى من حملته تماما .. وعندما هم بمغادرة العربة رأيته يرمق الشيخ الصغير باشفاق مفتعل لم يتقبله .. ولكنى سمعته يقول له بصوته اللولبى ..

ـ مش بقول لك يا شيخ محمد .. هو ده وقته .. والله لو ترقص العمة تتعشى ..

ولست ادرى لماذا جمح خيالى بعد ذلك سريعا وانا انظر الى الشيخ محمد اتصوره كما اقترح الطفل المهرج .. وفى اقل من ثانية اخرجته من ناقوسه الذى فيه نفسه عن الاخرين وانقلب امامى منها خلع الجبة والقفطان وارتدى بدلا منها سروالا قصيرا وقميصا تزينه خطوط ملونه متقاطعة .. واستبدل العمة الحالكة اللون بطرطور ضاحك ووضع على شفتيه نفس الابتسامة التى تشبه حركة راقصة المولد التى تكشف عن ساقها لتنسي الناس رقصها القبيح .. ثم اخذ يقلد الطفل الآخر الذى كان يضحك منذ دقائق فى كل ما كان يؤتيه من حركات .. واقوال وتعليقات .. بل وسمعته يغنى بنفس الطريقة الملتوية ولكن احدا لم يضحك .. غريبة .. ما معنى هذا .. لماذا لا يضحكون ..

اليس هذا هو بالضبط ما أضحكهم منذ قليل .. ما الفرق .. أم تراهم يتآمرون على الطفل المسكين .. ويصرون على دفعه نحو مصيره المحتوم رغم تنازله هو عن الكثير من كرامته من أجلهـــم رغم خروجه من ناقوسه القديم .. أهو قدر محتوم حقا .. ما معنى تعليقات الناس التى اسمعها .. انهم يستقبحون غناءه مع ان صوته — اقسم الله العظيم — أعذب من صوت الطفل الآخر ، واقسي من هذه التعليقـات تعبيرات وجوههم الثلجية الميتة التى كانوا يستقبلون بها غناءه وكأنهم يسحقونه سحقا ..

والحق .. اننى اشفقت على محمد وهو يقوم فى خاطرى بدور المهـــرج الفاشل .. اكثر مما اشفقت عليه وهو يقوم بدور المقـرىء التعس فى الواقع منذ قليل ..

ولم يردنى الى الادراك .. ويرد الى محمد قفطانه وعمامته..الا تلك النظرة التى رايته يرمق بها المهرج الصغير ردا على نصـيحته المرذولة .. كانت نظرة مرة قاسية يلمع فيها اصرار غريب رغم كل ما حدث .. نظرة كانت تترجم الكثير مما فى قلب الشيخ الصـغير من مرارة وبطولة .. وكأنه يريد ان يقول للمهرج باختصار ..

— انا اعمل زيك..اعوذ بالله .. ده الموت احسن ..

ولكنه لم يقل شـيئا من هذا .. بل امعن النظر فى الجالسين جميعا وكأنه يبصق عليهم من عينيه كل ماكان يحتقن فى قلبه من احتقـار .. للفكرة الذين يفضلون الهزل على كلام الله ..

واقسم اننى سمعت لنظرته تلك صدى زلزل الوجود من حولى .. ولكن احدا غيرى من المكتظين فى العربة لم يسمع شيئا .. لقد ضاعت صيحة الطفل فى طريقها اليهم وتناثرت هباء كما تناثرت كل مجهوداته السابقة فى ان يصل الى قلوبهم .. لم تصل الا الى قلبى انا ..

وانا .. من أكون .. مجرد شـيخ آخر .. تفصلنى عن الشيخ الصغير عدة أعوام سـبقته فيهـــا الى النوم فى الناقوس .. نفس الناقوس الذى ينام هو فيه .. مع فارق وحيد هو اننى كنت الليلة قد بلغت من القدرة على هـذه الرقدة ومن الضعف حدا أوشـكت معه ان أحطمه لاخرج من اغلاله .. ولكنـه هو .. الطفل الصغير الصلب كان يجد فى الخـــروج منه ذنبا أهون منه ان يموت ..

ودعت الطفل وهو يهبط .. والعربة تسير .. بنظرة أودعت فيهـــا بعض شكرى .. أما شكرى الحقيقى له فما كنت استطيع ان أحمـــله نظرة عابرة اختصرها فجأة قيام الاوتوبيس ليواصل رحلته فى قاع الليل ..

وتذكرت أمى .. وكلمتها التى قالتها لى منذ ثلاثين عاما .. وحزن الاسـتاذ لطفى وكلمة الشـيخ الطفل التى لولاها لاصبحت غدا مجرد مهرج يسـتجدى اعجاب الناس .. فلا يسخون عليه الا بالنفور والفشل ..

أمى .. هل سرقك النوم .. أم اننى سأعود الى البيت لاجدك لازلت يقظى.. أمى كم أنا فى احتياج اليك الليلة .. لأواصل البقاء فى الناقوس ..